حادثة سنة الطبعة

تأليف: سعد بن عبدالعزيز السيف

الدمام: المؤلف نفسه، ١٤٢٦هـ، ٨٨ صفحة

مراجعة: د. عبدالله بن ناصر السبيعي
قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة الملك سعود

تعد حادثة الطبعة التي جرت في عام ١٣٤٤هـ/١٩٢٥م في الخليج العربي خاصة المنطقة الواقعة بين سواحل البحرين والمنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية، من الأحداث التاريخية المهمة التي لا تنسى رغم تقادمها؛ إذ ظلت عالقة في أذهان أبناء المنطقة يتداول أهوالها وفجاعة أحداثها الأجداد، بل إنها اتخذت حدا فاصلا لتدوين التواريخ قبلها وبعدها، وتركت أثرا عميقا في الذاكرة رصد قليله، وتلاشى كثيره، لم يقتصر ضررها وأحزانها على ضفاف الخليج بل تعدى إلى الأحساء ونجد. حتى إن بعض ما قاله من عانى منها أصبح مثلا شائعا، ومن ذلك قول النوخذة راشد بن فاضل المشهور: "سمحان، وطبع وش عاد اسوي لك يا بحر"، وذلك بعد أن غرق مركبه سمحان في الحادثة، وأصبح قوله مثلا اعتاد الناس على التمثل به كلما صعب على أحد منهم أمر ما.

تصدى الأستاذ سعد بن عبدالعزيز السيف لتدوين بعض من أخبار حادثة الطبعة في كتاب أصدره بعنوان "حادثة سنة الطبعة". جاء هذا في كتاب من القطع المتوسط بلغت صفحاته (٦٣) صفحة، إضافة إلى صور وخطابات إشادة، ويبدو أن الأصل كان بحثا وضع فيما بعد في هيئة كتاب. وقد ذكر المؤلف أن فكرة التأليف حول الموضوع راودته منذ فترة، وكثيرا ما جالت في خاطره حتى تمكن من توثيقها وتدوينها وإبرازها. وأنه يقدمها على استحياء، ولا يعرف سبب ذلك الاستحياء! لا سيما وهو يدون حدثا تاريخيا مهما لم يلق اهتماما قبله، وكانت الحاجة ملحة لتدوينه. خاصة وهو يلامس بعضا من جوانب تاريخنا الاجتماعي والاقتصادي غير المدون والمعتمد على الرواية الشفوية والسعي الدؤوب للحصول على المعلومات من مضانها الأساسية.

حادثة
سنة الطبعة

أهدى المؤلف الكتاب إلى أرواح الرجال الذين قضوا نحبهم غرقا في البحر، وتخليدا لذكرى صراعهم أمام مشاق الحياة الاقتصادية التي كانت سببا في تلك النكبة، آملا أن يقتدي الخلف بالسلف في صبرهم وجدهم في طلب الرزق، وتحمل الشدائد والمحن.

قدم الكتاب الأديب ورجل الدولة البحريني تقي محمد البحارنة بمقدمة ضافية ذكر فيها أنه لم يسبق له علم بمن

كتب حول حادثة الطبعة قبله، وكونها واحدة من الكوارث العظمى في تاريخ المنطقة؛ ولذا عدت عبرة من عبر التاريخ.

استهل المؤلف كتابه بتعريف معنى الطبعة وتاريخ حدوثها، مع الإشارة إلى ذكر تواريخ طبعات سابقات؛ منها طبعة سماها طبعة (أهل الكويت) حدثت عام ١٢٨٨هـ/ ١٨٧١م، لا ندري لماذا خصها بذلك الاسم، مع أنها شملت أهل الخليج كافة بمن فيهم الكويتيين والبحرينيين وغيرهم، وكذلك طبعات عامي ١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م و١٣٣٥هـ/ ١٩١٦م، مؤكدًا أن الطبعة موضوع الكتاب هي الأكثر ضررًا مما قبلها.

حرص المؤلف على رصد ما دونه الباحثون والمؤرخون حول هذه الطبعة وآثارها المؤلفة؛ ومنهم عبدالله محمد البسام وفرج العمران وخليل المريخي وراشد بن عبدالرحمن الزياني الذي عايش الحدث، وشاهد وقوعه، فجاء وصفه له معبرًا ومؤثرًا، كان من أجمل ما حرص المؤلف على استقصائه وتوثيقه بعضًا من نوادر القصص والمواقف التي تروى عن حادثة الطبعة. جاء من أبرزها قصة ذلك الأعمى الذي انقلبت سفينته في عرض البحر ضمن سفن كثيرة، نتج عنها غرق معظم بحارتها، غير أن ذلك الأعمى استطاع السباحة ومصارعة الأمواج المتراطمة حتى وصوله سالمًا إلى الشاطئ من غير معرفة بأي اتجاه سلك، بينما فشل بعض من كان معه من غواصين مهرة. ومن القصص الطريفة ما رواه المؤلف نقلاً عن بعض من شهد حادثة الطبعة، إذ روى أن أحد كبار السن من أهل بلدة تاروت ممن كان في البحر حينها يتبادل الحديث مع صحبه فوق ظهر سفينة سمعوا

صوتًا يشبه صوت الطائرة الحربية حاليًا قادمًا من الجهة الشمالية الغربية؛ مما جعلهم يتساءلون عنه، فقال أحدهم: هذه عاصفة قادمة، ولم يمض أكثر من ثلاث أو أربع دقائق حتى هبت عاصفة مدمرة، وروى عن راوٍ آخر قوله: إن أعمى من كبًار السن من أهل قرية الزور بالقطيف توقع هبوب العاصفة قبيل بدئها، وحذَّر منها، فنجا مَن صَدّقه، وقام بتأمين سفنه الراسية في الميناء لتسلم من التدمير والجرف إلى عرض البحر.

أعمى من كبار السن من أهل قرية الزور بالقطيف توقع هبوب العاصفة قبيل بدئها

أفرد المؤلف مساحة كبيرة لما قيل في أحداث الطبعة من شعر، وعلل ذلك بقوله: "لما كان أكثر الذين اصطلوا بنار هذه الطبعة وآلامها محدودي المنزلة العلمية، وإدراكهم للقراءة والكتابة كان ضعيفا حيث لم يتيسر أمامهم سبل التعليم كما في وقتنا الحاضر ولانشغالهم بظروف الحياة، فقد عبر بعضهم عن هذه الحادثة بشعر عامي (شعبي)، والشعر هو الصفحة المعبرة عن الأحداث".

أورد نماذج مختارة من قصائد شعراء من أهل المنطقة، ومن أهل نجد ممن عايشوا أهوال الحادثة، وسجلوها ذاكرين فاجعتها، من ضمنهم الشاعر حمد بن علي الحمود من أهل بلدة تاروت الذي وصف الفاجعة بقوله:

يا ليلة صار فيها الويل والصايح   هذا غريق وهذا نادب صايح
ياما سفن شلة الطوفان بالصايح   فرّت عقول الخلق وتفاررت دوايه
وكم حرّة من خدرها فرعت دوايه   تنشد عن أهل لها وعقولهم دوايه

جاءت قصيدة الشاعر ناصر بن عبدالله بن كليب من أهالي الحريق في نجد معبرة ومؤثرة لا سيما وهو أحد شهودها والناجين منها، فقد أرسل إلى أخيه عبدالرحمن وصفا لما حدث قائلا:

تتصا عضيدي واخبره ويش جاني   غطا علي الموج في وسط غبّه
الطبعة الخطرة خطرها غطاني   موج البحر في غبته مطلحبه
عمري غدا مير الله اللي وقاني   كله سوال اللي ضناها تحبه
لوا عشيري بي يصيبه اجناني   لا قيل ناصر غيص في كل غبه

وعبر الشاعر ناصر بن حماد من أهل بلدة الأثلة في الدوادمي في قرية مصدة عن الحادثة عن أهوال الطبعة التي عاشها، وكان الشاعر وقت حدوث الطبعة على إحدى السفن في عرض البحر يعمل غيصا، وقد غرقت سفينته، واستطاع السباحة إلى أن أنقذته إحدى السفن المارة، قال:

أنا ما تهيالي ابعمري أو هالني   أقع ليلة سودا على اللي سرابها
يوم على الدبيل تطبع بها الخشب   كم واحدا جت قدرته ما درابها
ضربنا بنصف الليل نصف من الشهر   شهر ربيع أول بعدة احسابها
في عام اربع واربعين وثلاث   وألف من الهجرة لمن لادرى بها
دالوب غريبة من الله امطيعة   ثلاث ساعات تنفض ربابها
واللي ضرب بالموج موجه يشيلنا   شفنا الهوايل يوم زاد اقتلابها
تفرقوا من غير عقد وجيرة   ونفوسهم اللي ما يعدد حسابها
في راس تنورة دفنا جنايز   وفي كل سيف يذكرون الغثابها

وقال الشاعر البحريني عبدالرحمن بن عبدالله يصف الحادثة:

يوم إن قضى الله والمقدر بنا صار   هبت دواليب الزلازل والمطور
في ليلة ظلمه وقام البحر طار   والموج بالجنبين راكب ومحدور
والنوخذة ما له دليل ولا اعبار   في وين سند والقلب ما له اشعار
اللي معانا من الخشب دار وانهار   متشتت ما بين خاطر ومخطور
قلنا الخبر ما صابكم ياهل الدار   قالوا لنا طوفان ماصار مصيور
قلنا الخشب قالوا طبع وانهدم هار   تفرقت ما بين لايث ومكسور

ونظم الشاعر عبدالمحسن العبدالله المقحم من أهل الزلفي في نجد هذه الأبيات، حيث كان في البحر ساعة وقوع الحادثة، وكتب الله له ولمن معه النجاة:

هبت علينا من شمال مسيان   في غبة لا عاد ليل عليّه
اغلنطست وامطر سحاب بطوفان   غضب مطرها تقل جلد برديّه
الربع لجو كل ابوهم بالآذان   ايقنت أنا بالموت هاكا العشيه
جا ساعة والله تشيب بالأعيان   في حزة عاف الخوي من خويه

كانت الظروف الاقتصادية الصعبة التي مرت على الجزيرة العربية متمثلة في شح الموارد، وضيق مجالات العمل، وضيق ذات اليد، والرغبة في البحث عن فرص عمل واعدة تجبر القادرين من الرجال على ركوب البحر في مواسم الغوص وامتهانه حرفة بحث عما يسدون به حاجات أسرهم رغم تعلقهم بديارهم وخوفهم من البحر ومفاجآته. تجسد ذلك

في شعر إبراهيم بن سالم بن يحيوي من أهل بلدة الشعراء نجد:

أبا تنحر بحر سيلان   يارب سمح لي النيه
كم من صبي ضربه أهدان   ما له جدا تبع فيه
راضن على مقعد الحقران   رمّتك ما هيب مبغيه
يا ما حلا صفة الجذعان   كل ركب فوق عمليه
الجيش ما يبغى الرديان   يبغى عيال سنافيه

وبعد أن شاهد البحر وأهواله قال:

يالله ياالله ياللي ترحم الحالي   تلطف بنفسي وتلحقها مناويها
يالله أنا طالبك حمراً هوا بالي   حمراً إلى روحت تبعد معاشيها
حمراء إلى مع واهج للآلي   مع الخرايم توسع صدر راعيها
مع الركايب ولا تطرون الأنذالي   لين آصل الديرة اللي صاحبي فيها
يا سعد لو من يطلع ذيك الاقذالي   ويشوف روس الهضاب الي ربا فيها

أفرد المؤلف ما تبقى من الكتاب للصور شملت صورا شخصية لأشخاص عاصروا الحادثة، وصورا أخرى بعضها ليس بذي علاقة بها.

ومن خلال استعراض الكتاب تبين مدى الجهد الذي بذله المؤلف لتوثيق مادته وتدوينها، غير أن هناك بعض الملاحظات. ومن أهمها؛ إيراده تاريخين مختلفين في اقتباس ليوم بدء هبوب العاصفة في ص ص ١٤-١٥، حيث ذكر في الصفحة الأولى أنها بدأت في ليلة الخميس، بينما قال في الثانية أنها حدثت في ليلة الجمعة. كما يؤخذ على

المؤلف طول بعض النصوص المقتبسة؛ ومنها النص المقتبس المتصل ص ص١٧-١٩، وكذلك عدم الإشارة إلى أرقام بعض الصفحات المقتبس منها من بعض المصادر. غير أن أهم ما يلحظ على الكتاب عامة تكرار قول عبارة قال لي أو ذكر لي أو روى أحدهم أو قال آخر أو ذكر أحد كبار السن دون أن يسمي ذلك القائل أو الراوي؛ مما أفقد أهمية التوثيق والرواية الشفوية. ولم يذكر المؤلف المراجع التي اقتبس منها القصائد الشعرية مع عدم إيضاحه مؤلف كتاب (مكارم الأخلاق) الذي أورده في المتن، مقتبسا نصا منه، وتجاهل إيراده في قائمة المصادر والمراجع. ويبدو على الكتاب عامة ظاهرة قطع سياق بعض جمل الفقرات بين سطرين متتاليين مع وجود بتر في السياق بين ص ص ٢٦-٢٧.

ومن الملحوظات العامة على الكتاب وجود بعض العبارات التي قد لا تتفق لغويا مع ما يراد بها، ومنها على سبيل المثال قوله في ص ١٤: "أن القلة الباقية التي عاصرت تلك السنة، ووعت مأساتها لا تزال تتحدث عنها بارتهاش"، "وتوقف فيه الزمن طويلا على البحارة الخليجيين الذين جرفهم الموج نحو الأسفل"، "وتحديدا الساعة الثانية بالتوقيت العربي". وما قاله في ص٢١: "فكانت الرياح شديدة جعلت المياه مختلطة برمل قاع البحر". وما ذكره ص ٢٨ ونصه: "الذي هو أدهى وأمر هي المشكلة التي على الساحل حيث رست الآلاف من جثث الموتى".

لا شك أن هذا الكتاب يعد إضافة تاريخية جيدة، ومصدرا مهما للباحثين في تاريخ المنطقة والمهتمين بالبحث في تراثها التاريخي الذي لم يدون بعد؛ مما يعد جهدا يذكر فيشكر للمؤلف.